اتجاهات الأدب العالمي

في العصر الحاضر

وكيف يتجه أدبنا (١)

للأستاذ خليل هنداوى

أيها السادة

فى هذه الجلسة أحدثكم حديثاً أراد البعض أن يكون جديداً ، أو أنا نفسي كنت ولا أزال أطلب الجديد وألح فى طلبه أردد بيت الشاعر الزهاوى :

سئمت كل قديم حتى سئمت حياتى
إن كان عندك شيء من الجديد فهاتِ

ولكن أنى لى أن أعرف حدود هذا الجديد الذى تريدونه أريده ؟ وأنى لى أن أعرف الرجل الذى يستطيع أن يدلنى على لجديد الذى يبغيه ؟ إننى ما فكرت يوماً فى هذا الجديد إلا ذكرت ل حكيم الجامعة : « لا جديد تحت الشمس » ومع هذا أراني

ت شاب فى ريعانه فسمع مع الحاضرين (زغردة) انبعثت من ند أركان الحجرة ، ولم تكن صادرة بطبيعة الظروف عن أية حدة من الحاضرات .

وبعد فلعل القارىء الكريم يسلم معى عا لهذه الظاهرة وأشباهها دلالة ، وبأنها تفتقر فقط إلى الدراسة المنظمة . أما من وجهة ن فهناك الأقوال بأن المحتضر يرى أرواح الموتى ويحادثهم : ى أن بلالاً كان يبتسم عند الموت ، فقيل له فى ذلك فقال سنلاقى الأحبة محمداً وحزبه » وروى ابن مالك عن أبى أيوب بصارى قال : « إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من ، الله كما يتلقون البشير فى الدنيا ، فيقبلون عليه ويسألونه ، فيقول بهم لبعض : أنظروا أخاكم ليستريح فإنه كان فى كرب شديد . : فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان ، مافعلت فلانة . . . »

بث . عبد المغنى على حسين

كلما استقبلت هذه الشمس وما تحتها رأيت شيئاً جديداً ، وما أضيق الحياة لو بقيت حدودها ماثلة لا تتزحزح كما تراها العين !

إنى محدثكم حديثاً أرجو ألا تقيسوه بقياس الجديد ، لأننا لا نملك مقاييس صحيحة تفرق بين الجديد والقديم ، فقد تعثرون فى هذا الحديث على قديم وجديد . وليس هذا كل مايهمنى ، وإنما همى أن أوجه عقولكم إلى « نصيب الأدب فى حياة الأمم الحاضرة وحياتنا » ومتى ذكر الأدب هرعت وراءه صفوف من الذكريات لا تعد ، أو احتشدت حوله جحافل من حياة الناس لا تحصى ، لأن حديث الأدب هو حديث الحياة ، ومتى كان حديث الحياة تافها ؟ ومتى كان حديث الحياة يرويه رجل أو يحكم فيه رجل ؟

قد يقول البعض : ولم اخترت هذا الحديث الذي إن خص بعضنا فلن يرضي عنه الجل ؟ وما هو نصيب الأدب فى الحياة الحاضرة حتى تحدثنا عن اتجاهاته وعهدنا الحاضر عهد علم ومادة ، لا عهد بضائع كلامية ؟

إننى لا أري رأى من يقول بانحدار سلطان الأدب ، لأن الأدب ، أو قولوا الفن ، ليس بشيء غريب عن كياننا ، ولا بعنقاء مغرب نحلق وراءها ونريد صيدها ، ولا بثوب نرتديه ونطرحه متى نشاء . وأنى لنا أن نهمل الأدب إذا كان الأدب جوهراً كامناً فى صميم أنفسنا ، أو إذا كانت الحاجة إليه حاجة نفسية تأتى من داخل النفس لا من خارجها ؟

ويقول البعض : ونحن لا نجحد قيمة الأدب ولكنا لا نجد فيه ألهوة تنفي سأمنا وتملأ فراغنا حين ننتهى من جدنا . نتخذه مسلياً لا قائداً يتصرف بأمورنا ، ولكن هذا الأدب قد يكون ضرباً من اللهو يتفكر به قوم قل جدهم ولكن ليس الأدب كله . وكيف يكون الأدب الذى يمثل حياة الناس ويصور هناءهم وشقاءهم ، وحيرتهم وطمأنينتهم ، ثم يأتى المجتمع يحاول أن يهدم هنا ، ويبنى هنالك ، كيف يكون هذا الأدب لهواً تلهون به فى فراغكم وهو الأدب الذى ينفذ إلى النفس فيجردها من خرقها الرثة وينشئ لها حياة جديدة وجواً جديداً ؟ وإذا كانت رسالة العلم ، أن تقرب وسائل الحياة ، وتنوع أسباب الرفاه والراحة فان رسالة الأدب من حياة الأمة رسالة تثقيف الروح وتهذيب

(١) نص المحاضرة التى ألقاها الأستاذ فى بيروت فى قاعة محاضرات كلية ..د الخيرية الاسلامية بناء على دعوة جمعية خريجى الكلية

النفس وصقل العقل . رسالة تنزل منها منزلة الايمان ، رسالة لايستطيع العلم أن يقوم بها وحده . وما وحّد علم بين أبناء وطن واحد ، ولكن الأدب وحد ويوحّد !

أما حاسة الارتياح إلى الأدب والفن أو حاسة تذوقهما فهي حاسة جذورها بعيدة القرار في النفوس . هذه الحاسة تدفعنا بالرغم منا ، وبدون وعي منا إلى أن نطلب الموسيقى مثلاً لأن نفوسنا تحن إليها ، وإلى أن نغتبط بمطالعة قصة أو انشاد قصيدة تمثل نفوسنا برغم المادة التي ترين على قلوبنا . هذه الحاجة هي ميزان أذواقنا وميولنا ، لاشيء يقدر على إخمادها ، والذهاب بها . ناهيك بأن كثيراً من هذه الأنواع الفنية والأدبية ماتتصل أسبابه مباشرة بأسباب حياتنا الاجتماعية ، وان الأديب الذي لايشعر بهذه الحاجة التي تسوقه إلى الكتابة لايستطيع أن يبدع شيئاً ، أو الفنان الذي لايحس هذا الدافع في نفسه لايقدر أن ينشيء شيئاً !

كانت المقاييس التي توجه الأدب والفن أيها السادة مقاييس فنية تستلهم صدقها ودقتها من الأدب والفن نفسها . عودوا مثلاً إلى الأدب الفرنسي وانظروا كيف يدرسه الطلاب على مقاييس فنية صرفة ، أما اليوم فقد تبدلت المقاييس وأخذت مقاييس المبادئ الاجتماعية والسياسية تطغى عليه . وبحسب هذه المقاييس تغيرت اتجاهات الأدب والفن ، وتطورت غاياتهما في الجيل الحاضر . وتعليل ذلك أن الأدب كان يحيا منكمشاً بنفسه يصف الجمال للجمال ، ويرسم الفن للفن ، ويقنع بأن يطل على الحياة إطلالاً ، ويعمل على إكبار شأن الفرد ويجعل الأديب نفسه قلب الوجود تتلاقى فيه الاشياء أكثر مما يتوزع في الأشياء . وأما اليوم فقد خرج إلى الحياة ، وإلى المجتمع وإلى السياسة . فأصبحنا ندرس الأدب على هذه الطريقة .

من الأدب الأدب الذي لا غاية له إلا نفسه . يتغنى الشاعر مثلا لأنه يريد أن يغني لنفسه ويسمع ألحان نفسه ؛ ومن الأدب الذي نزل إلى المجتمع وخبر خلائق الناس وعالج الحياة ؛ ومن الأدب الذي تفيأ ظل الدولة والسياسة والأحزاب . أما الأدب الأول ففي إمكاننا أن ندعوه «الأدب الارستقراطي» لأن الأديب فيه لا يعمل إلا لنفسه ، أو لفئة نزرة العدد تعجب به ، فهو من نفسه في عالم واسع المدد منفصل عن هذا الوجود ، والأدب الثاني ندعوه « الأدب الديموقراطي » يعنى بالطبقة الوسطى ويعالج مسائلها ويصور آلامها ويقلب وجوه حياتها ؛ والأدب الثالث ندعوه « أدب الأزمة » تخلقه أزمة اجتماعية كأدب الثورة الفرنسية ، وأدب الثورة البلشفية الحمراء ، أو تبدعه أزمة سياسية كأدب الحرب العظمى الذي صور فظائع الحرب وجوها المكفهر ، وأدب الفاشية الايطالية ، والهتلرية النازية . أو تخلقه أزمة عصبية أو دينية أو اقتصادية . وقد يقوم أدب على غير هذا القرار يتجرد من كل هذه العوامل الضيقة ، عوامل الزمان والمكان ، أدب شامل إنساني يعانق الانسانية من أقصاها إلى أقصاها على اختلاف شعوبها ونزعاتها . ولكن حدث هذا الأدب يقوى في أيام البلاء ويخف في أيام الهناء ، لأن الشقاء يقرب الضعيف من الضعيف ! حتى إذا استراح الاثنان عادا إلى نزاعهما الذي لا ينتهي

ومن ذا يتأمل في أدب اليوم ولا يجده ميدان صراع في كل بقعة من بقاع الحضارة ؟ فأدب الأمم الديمقراطية يذود عن الديمقراطية ويدافع عن حرية الفرد بما في وسعه أن يدافع ، لأنه يعلم أن تقييد الأدب هو نوع من القضاء على حريته التي لا يحيا إلا بها . هذه الحرية يتباهى بها لأنه يراها مستمدة من حرية الحياة التي لاتضيق ، وأدب الأمم الدكتاتورية يصول صولة أربابها ويفرض على الناس نفسه ، فبينا نرى في الأدب الديمقراطي كل فرد يفكر وحده تفكيره الخاص ، له استقلاله وذاته وعالمه واعتقاده ، نرى في الأدب الدكتاتوري أن الفرد الواحد يفكر تفكير الأمة كلها ، وأن الأمة كلها تفكر تفكير هذا الفرد . وخير ممثل للأدب الحر المدرسة الأدبية الفرنسية التي لا تزال تحترم مبدأ ثورتها الذي أعلن حرية الفرد وزاد عنها . ولعل الوضع السياسي الذي خرجت به من الحرب العظمى أيد هذا الأدب ، ولم يزج بها في أحضان الآداب الأخرى التي ولدتها الأزمات المختلفة . وفي هذه المدرسة تجد ألوان الأدب والتفكير متآلفة على اختلافها ، فيها الأدب الفردي والأدب الاجتماعي والأدب الانساني والأدب الشعبي والأدب الشيوعي ، ولكن

ذا لا يجعلنا نقول : إن مقاييس أدبها وفنها لم تختلف ، فلقد دلت المقاييس الفنية ، وكاد يحل محلها مقاييس تتبع النظريات سياسية والاجتماعية ، ولكن محمدة هذه المدرسة أنها وسعت كل هذه الألوان المتقاربة ، وهذه المبادىء المتنافرة ، وتقبلتها كلها باسم الديمقراطية . . .

إن أدب الأمم الدكتاتورية يسعى كما توجهه الديكتاتورية يق الفسحة ، قريب الغاية ، سليب الحرية ، لأن أصحابها جعلوا ه وسيلة للدعاية المحلية ، وتسيطروا على كل ما يتفرع من الأدب الفن كالمسرح والسينما . وأول من بشر بأدب (الدعاية) الأديب وسي « بليكانوف » الذي كان يقول في مطلع هذا القرن « إن ن أثر فني مرتبط بحياة الشعب السياسية » وقد شاعت هذه ظرية في مؤتمر (فولتا) الذي انعقد في (روما) سنة ١٩٣٤ حث في أدب المسرح وفنه ، فقال فيه أحد مخرجي السوفييت : إن أدب التمثيل بحاجة إلى الاقتراب من الشعب ، وملامسة حه » وقال فيه أحد فنانى الألمان : « إن السياسة الممثلة يجب تتمثل في أدب التمثيل لأن السياسة اليوم هي روح حياة عوب . »

وفي روسيا بعد هدوء ثورتها الاجتماعية أدرك أقطابها قيمة ن ، فسخروا كل أنواع الأدب والفن لنشر دعاياتهم ومبادئهم . ن السينما يقول « لينين » إنها الفن الأول للثورة . . . لأنها ور الآلام الاجتماعية التي كانت ظهور الناس تلتوى تحتها ، هي النفوس لحياة أعدل ومثل أعلى . وفي المؤتمر الأخير ى عقده أدباء الروس قال أديبهم الكبير « مكسيم غوركى » : ن الدولة اليوم يجب أن يقودها ألوف من أرباب الثقافة الكاملين . ذه وسيلة ضرورية لترد على الشعب العامل وسيلة إنماء عقله عته ومواهبه التي هي حق من حقوقه المسلوبة في جميع اء العالم . هذه الغاية التي تتحقق بالعمل — تحتم علينا — ، الأدباء — أن نكون مسئولين عن عملنا وسلوكنا الاجتماعي ر عمل لا يحيل منا أدباء واقعيين ، وقضاة على الناس ونقاداً ياة فحسب . وإنما هو عمل يعطينا الحق بانشاء حياة جديدة لور جديد . ومثل هذا الحق يوجب على كل أديب أن يشعر بمسئوليته الخطرة في هذه المرحلة »

هذا مايقوله « مكسيم غوركى » أشهر أدباء الروس والأديب الأكثر انسانية في أكبر مقاطعة غذت الآداب بالأدب الانساني ، لأن تيار « الدعاية » قذف به إلى حيث يريد ! وهكذا ارتدى الأدب رداء محلياً حتى غدا الأدب في روسيا أدباً روسياً والفن فناً روسياً ! وكذلك الأمر في « الفاشية » فانها عملت بهذا المذهب القائل « إن الموضوع الأدبي يجب أن يستمد من قلب الأمة لا من المحيط الخارج عنها » وأصبحت تريد من الفن أن يخدم الدولة . . .

أما الهتلرية الجرمانية فقد أرادت أن تتفوق في هذا الباب ، فسخرت العلم الذي لا يسخر للدلالة على أصالة الجنس الجرماني وطهارته من اختلاط العناصر وقد طغت أيما طغيان على حقول الأدب والفن . يقول ممثلها في أحد مواقفه « إن كل ما نعجب به اليوم من علم وفن واختراع إن هو إلا وليد فئة قليلة من الشعوب . وربما كانت هذه الفئة تنسلها سلالة واحدة ومن هذه السلالة تنحدر الثقافة الانسانية . . . لتتوارى هذه الفئة ، فكل جمال الحياة يتوارى معها . . . أريد أثراً جرمانياً يبقى أثر الجرمانية فيه بعد ملايين السنين » وقد أيد هذه النظرية أحد رجالها بقوله « إنا نريد فناً حقيقياً ، فناً جرمانياً يستمد روعته من قلب الابداع الفني ، فناً يدخل إلى أعماق نفوسنا ويهزها هزاً ! » ويقول وزير دعايتها « في اللحظة التي تسطر فيها السياسة رواية شعب ما ، حيث يتلاشى عالم وينشأ عالم ، حيث تزول قيم عتيقة وتقوم قيم جديدة ، لا يجدر برجل الأدب والفن ولا يحق له أن يقول : هذا شيء لا يهمني ولا يعنيني . . . ونحن ، رجال السياسة — إزاء هذه الحركة ، رجال فن لأننا نهيء شعباً . ولست أدعو إلى أن يكون الأدب عسكرياً ، وانما يجب على الأدب أن يخلق ويصور العلاقات المرتبطة بهذه الحركة الانقلابية . . . يجب على الأديب أن يجر نفسه إلى الزوبعة التي تعصف في وطنه . يعشى تحت عجاجتها ولا يقف شاهداً على الربوة ! إننا نحكم على الفن والأدب بالنسبة إلى تأثيرها في الشعب . وكل ما خالف هذا لا نرضاه . . . »

(البقية في العدد القادم)

خليل هنداوي